على هامش السيرة

حديث عـــداس

للدكتور طه حسين بك

قال عتبة بن ربيعة لأخيه شيبة : أنظر الى هذا الرجل المقبل على حائطنا ومن ورائه السفهاء والعبيد قد أغروا به وسلطوا عليه ، فهم يؤذونه بألسنتهم ، وهم يؤذونه بما يحصبونه به من الحصى والأحجار ! ألا تثبته ؟ قال شيبة وقد نظر فأطال : بلى ! والله إني لأعرفه كما تعرفه ، وإن قلبي ليرق له كما يرق له قلبك ، وإن نفسي لتثور غضباً له كما تثور نفسك ، ولقد هممت وما زلت أنازع نفسي أن أفزع إلى نصره وجواره وحمايته من حلماء ثقيف وسفهائها ، لولا ما بينه وبين قومنا ، ولولا أني أعلم أننا إن فعلنا كان لنا مع قومنا أمر عظيم وخطب جليل . قال عتبة : وارحمتاه لابن عمنا من قومه ! ثم وارحمتاه لقومنا من أنفسهم ! ما كنت أحسب أن يبلغ الأمر بقريش أن يذل عزيزها ونحن شاهدان ، وأن يجترئ حي من أحياء العرب وإن كانوا ثقيفاً ، على أن يسوءوا رجلاً من قريش وإن كان مستضعفاً مهيناً . فكيف بابن عبد المطلب وابن أخي حمزة والعباس ؟ وكان هذان الرجلان من أشراف قريش قد ذهبا إلى بستان لهما في الطائف يصلحان من أمره وأمرهما ، ويهيئان لتجارتهما : يجمعان ما تنفذه ثقيف مع تجار قريش إلى اليمن في رحلتها إلى اليمن ، وإلى الشام في رحلتها الى الشام . وكانا قد أقاما في الطائف أياماً ، وأقبل في أثناء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار بعد أن تنكرت له مكة بطاحها وظواهرها ، وبعد أن تنكر له الناس حتى أقربهم اليه وأدناهم منه ، وبعد أن فقد عمه الذي كان يمنعه ويقوم دونه ، وبعد أن فقد زوجه التي كانت ترعاه وتكلؤه وتحوطه بالرحمة والحب والحنان ، وكان قد لزم داره بعد هاتين الكارثتين لا يكاد يبرحها خائفاً محزوناً حتى أقبل عليه عمه أبو لهب فأمنه وأعلن اليه أنه يقوم من حمايته بما كان يقوم به أبو طالب . فسرى عن النبي الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والذهاب إلى المسجد ، والاضطراب في مكة ، ولكن قوماً من قريش ألحوا على أبي لهب حتى غيروه على ابن أخيه فاسترد جواره وحمايته ، وعاد من حرب النبي وعداوته إلى مثل ما كان عليه قبل أن يموت أبو طالب . فلما ضاقت مكة بخير أبنائها خرج إلى الطائف يلتمس جوار ثقيف ، فأقام فيهم ما شاء الله أن يقيم ، يسعى عند هذا ويتلطف لذاك ، وكلهم يرده وكلهم يمتنع عليه ، وكان مقامه فيهم قد أخافهم وثقل عليهم وأثار في نفوسهم إشفاقاً أن يصيب مدينتهم ما أصاب مكة من اضطراب الأمر ، وانتقاض الضعفاء على الأقوياء واستجابة قوم لهذا الرجل الذي أنكره قومه ولم تره مدينته إلا ما يكره . فتقدموا اليه في الرحيل عنهم ، ولم يكد يفعل حتى أغروا به سفلة الناس وسفهاءهم فتبعوه يؤذونه بالقول والفعل حتى ألجأوه ضعيفاً مكدوداً وكئيباً محزوناً الى حائط هذين القرشيين ، وأقبل النبي وقوراً هادىء الخطى مطمئن النفس ، تظهر على وجهه الكريم آيات الضعف ، وآيات القوة ، وآيات الحزن ، وآيات الرجاء . ضعف مصدره الجهد والعناء ، وقوة مصدرها الحزم والعزم ، وحزن مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم إلى الخير فيبغونه بالسوء ، ويرشدهم الى النجح فيريدونه بالمكروه ؛ ورجاء مصدره الثقة لأن الله لم يختره لرسالته ليخذله قبل أن يتم أمره ، ويعلي كلمته ، ويظهر دينه على الدين كله ، وبأن الله لا يصيبه بما يصيبه به من المكروه إلا امتحاناً لقلبه وابتلاء لنفسه وتمحيصاً لطبعه

أقبل هادئاً والناس من ورائه مضطربون ، مستأنياً والناس من ورائه مسرعون ، حتى انتهى الى ظل من ظلال البستان فجلس متعباً مكدوداً ، والقرشيان ينظران اليه ويرقان له ويعطفان عليه ، وينازعان نفسيهما الى نصره ومعونته ، وقد كادا يفعلان لولا أن ذكرا قريشاً ، ولولا أن ذكر عتبة بن ربيعة صهره أبا سفيان وقدر ما يلقاه وما يلقاه أخوه من قريش إن منح محمداً معونة أو نصراً ؛ ولكنهما رأيا

ابن عمهما يأوى إلى ظلالها مكروباً محزوناً ، فلم يملكا أن يمتنعا عن أن ينالاه بأيسر الخير وأهون البر ، فيدعوان عداساً عبداً من عبيدهما ويأمرانه أن يحمل إلى هـذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من عنب البستان ليصيب منه ، ويمضى العبد منفذاً أمرهما ، ولـكنهما لا يستطيعان أن ينصرفا عن مكانهما ولا أن يحولا بصرهما عن ابن عمهما ، وقد أهينت فيه قريش كلها ، لولا أن قريشاً قد احتفظت بأحلامها فهما ينظران ويرثيان ، ويعمل الأسى فى قلبيهما والعبد يسعى بالطبق الى هذا الرجل المحزون ، حتى إذا انتهى إليه وضع الطبق بين يديه ، وأقبل الرجل على العنب يريد أن يصيب منه ، والعبد قائم منه غير بعيد ، ولـكن القرشيين ينظران فيريان عجباً : يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد ؛ ثم يريان العبد وقد أكب على هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكياً مستعبراً ، مندفعاً فى حديث لا يكاد ينقضى ، مظهراً من التكرمة والاجلال لهذا الرجل ما لم يتعود أن يظهر لأحد من سيديه . فيقول أحد القرشيين : ويحك لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد ؛ وما أرى إلا أن ثقيفاً معذرين إن خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم أيضاً ما خفنا نحن منـه على العبيد والضعفاء والأقوياء ؛ وهـذا الرجل قد نهض وقوراً هادئاً ، ومضى أمامه وقوراً هادئاً ، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق . ثم وقف يشيعه بطرفه حتى غاب عن طرفه وعن طرف القرشيين

هنالك عاد العبد الى سيديه ، وفى وجهه آيات الكآبة والحزن ، وفى وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضى ، ودموع تجرى من عينيه لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس ، أم كانت دموع غبطة وابتهاج

يقول عتبة بن ربيعة للعبد رفيقاً به عطوفاً عليـه : ويحك يا عداس ! إنلك لمع هذا الرجل لشأناً ، فاقصص علينا بدء حديثك فقد رأيناك حفياً به متلطفاً له ، مكباً عليه تقبله باكياً مواسياً ، ثم مرافقاً له تشيعه بشخصك ثم بطرفك . قال العبد : نعم يا مولاى إن لى مع هذا الرجل لشأناً وحديثاً عجباً ، وأحب الى أن أقص عليكما حديثى ؛ ولـكن أى حديثى تريدان ؟ أتريدان حديثى منذ اليوم ، أم تريدان حديثى القديم الذى مضت عليه أعوام طوال . والذى دفعنى إلى بلادكم هذه ، والذى اضطرنى إلى ما أنا فيه من رق ، أعمل لـكما بيدى فى هذا البستان ، وما عملت لأحد قبلـكما بيدى ، وما عملت لنفسى بيدى ، وإن كان الناس ليعملون لى كما أعمل لـكما الآن ؟ قال عتبة وقد ثارت فى نفسه طبيعة العربى الذى أترف وفيه فضل من بداوة ، فهو مشغوف بالقصص ، كلف بغريب الحديث . قال عتبـة : وإن لك لحديثاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الجديد سبباً . قال عداس : نعم . قال عتبة : فاقصص علينا حديثك . وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث ، وهم العبد أن يبدأ حديثـه قائماً ، ولـكنهما أذناه له فى الجلوس فجلس وأطرق وأغرق فى صمت غير طويل ، ولـكنه كان عميقاً . ثم قال : لقد انتهيت الى هذا الرجل منـذ حين فسمعته يقول كلاماً ما أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله فى هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك حدثنى بحديث ما يعرفه إلا نبى ، وكأن حديثه هذا منى على ميعاد ، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد . لقد سألنى سؤالاً لم يسألنه أحد منذ وطئت هذه البلاد . سألنى عن موطنى الذى نزحت منـه ، فأنبأته بما لا تعلمان وبما يحسن أن تعلماه الآن ، وهو أنى رجل من أهل نينوى ، نشأت فى بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يتح لهم الملك والامارة ، فقد أتيحت لهم الثروة والغنى ؛ وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال ، فارغاً لمـا يفرغ له أمثالى فى تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذة الجسم ولذة العقل ؛ ألهو ما وسعنى اللهو ، ثم أقرأ وأختلف إلى مجالس العلماء والفلاسـفة من القسس والرهبان فأسمع منهم وأتحدث إليهم ، وآخذ معهم فى ألوان من الجدل حول ما يختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم ، وأنتما لا تعلمان من أمرنا فى تلك البلاد إلا قليلاً ، إنما تعنيان ويعنى قومكما بما تحملون إلينا من تجارة ، وما تصـــدرون به عنا من مال ، وما تصيبون فى بلادنا من هذه اللذات اليسيرة . فأما ما دون ذلك فليس لـكم به علم ، وليس لـكم عنه سؤال ؛ ولو قد دخلتم فى حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا ، لرأيتم أن فى نفوسنا اضطراباً شديداً ، وغلياناً متصلاً ، وضيقاً بالسلطان ، وتمرداً على النظام ، وإنـكاراً لما ورثنا من عادة ، وشكاً فيما تلقينا من دين . ساءت فينا سيرة السلطان فنقمنا من نظام الحكم ، وساءت فينا سيرة القسس فشككنا فى الدين ؛ فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة ظاهرة وأضمروا عصياناً خفياً ، وعكفوا

الذات يستعينون بها على احتمال الحياة ؛ وأما الأقوياء وأولو
م فقد فكروا وقدروا وجدوا فى التفكير والتقدير يلتمسون
جاً من حرج ومخرجاً من ضيق ، وكنت فيما رأيت من هؤلاء .
ضقت بالحياة فى مدينتى ولم أجد عند علمائها وقسسها شيئاً
جت مسافراً إلى الشام ألتمس فى السياحة تسلية وعلماً ، وأبتغى
ا ظفراً بالخير ، ولست أقص عليكما رحلتى إلى الشام ومنازلى
طريق إليها ، واضطرابى فى مدنها وقراها ، ويأسى من قسسها
علمائها ، وضيقى بسادتها وحكامها ، ولكنى انتهيت بعد كثير
ن الاضطراب إلى دير من الأديرة يقوم فى آخر العمران وأول
صحراء مما يلى بلادكم هذه ، وأقمت فى هذا الدير دهراً راضياً
ن حياته الهادئة المطمئنة راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين
لأخيار ، ناعم النفس بعشرتهم مستمتعاً بأحاديثهم ، ولكننى سمعت
من أحاديثهم عجباً : رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالرمز ،
ويومئون اليه بالاشارة ، ورأيت حديثهم هذا الرمزى يكثر ويشتد
إمعانهم فيه كلما مرت بديرهم قافلة من قوافلكم هذه التى تتردد
على بلاد الروم . رأيتهم يعرفون أنباء هذه القوافل قبل أن تصل
إليهم فيتهيأون لها ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها ، ويظهرون
الحفاوة بها . ثم يخلو بعضهم الى بعض ، فيتبادلون بينهم أحاديث
الرمز والاشارة والايماء ، ويقول بعضهم لبعض : لم يأت النبأ
بعد ؛ أو يقول بعضهم لبعض : لقد انقطع النبأ بعد أن جاءت
بشائره . فلما كثر على منهم ذلك أزمعت أن أعلم علمه ، فتلطفت
لهم وتوسلت اليهم حتى عرفت أنهم ينتظرون إصلاحاً دينياً ذا بال ،
وأنهم قرأوا فى كتبهم أن هذا الاصلاح يأتيهم من قبل هذه
البلاد ، وأنهم حسبوا وقدروا ورأوا أن زمان هذا الاصلاح قد
أظل الناس ، وأن أنباء قد انتهت إليهم وأحاديث قد نقلت لهم .
وكلها يدل على أن أوان هذا الاصلاح قد آن . ثم قصوا على من
هذه الأنباء والبشائر أطرافاً ، فلم أملك أن كلفت بالرحلة الى بلادكم ،
وقلت ما عنعنى إن أبعدنى السفر ؟ وما يمنعنى أن أتصل بقافلة من
قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض ، فأعلم من علمها ، وأصيب
من تجارتها ؟ ولعلى أظفر بما يتحرق إليه هؤلاء الرهبان شوقاً ؛
وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بينى وبين تلك القافلة التى أمنتنى
على نفسى ومالى ، وضمنت لى أن أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب
من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام ، حتى إذا بعدنا عن بلاد
الروم وانقطعت أسبابى من أسباب قيصر عدا أهل هذه القافلة
على مالى فاحتجزوه ثم عدوا على فاتخذونى بضاعة وباعونى من
صاحبكما ذاك الذى اشتريتمانى منه قريباً من يثرب .

فهذا بدء حديثى أيها السيدان . وقد عملت فى بستانكما
أعواماً ، وكان الناس يتحدثون من حولى بهذه الأحداث التى
تحدث فى مكة ويتناقلون من حولى أنباء هذا الرجل الذى ينكر
الأوثان ويدعو الى التوحيد ، ويريد أن ينصف المظلوم من
الظالم ، والعبد من السيد ، ويسوى بين الضعيف والقوى ؛ وكان
الناس يتحدثون من حولى بما يلقى هذا الرجل فى بلده من شر .
وما يمتحن به أصحابه من ألوان الفتنة ، وكنت كلما سمعت هذه
الأحاديث هششت لها ، وطابت بها نفسى ، وأحسست أن النبأ
الأعظم قريب ؛ وكنت أقدر أن صاحب هذا النبأ يجب أن يكون
كاخوانه الذين سبقوه عالماً بدين الله ، داعياً اليه ، مخبراً من أنباء
الأولين بما لا يخبر به الناس ، وكم وددت لو أتيح لى أن أنحدر
الى مكتكما هذه فأسأل صاحبكما وأسمع منه . ولكن الرق فى
بلادكما شديد . فنحن أرأف منكم بالرقيق ، وأعطف منكم عليه .
وقد لبثت فى بستانكما هذا أسمع الأنباء وألتمسها وأتحرق شوقاً
إلى مصدرها حتى أقبل صاحبكما هذا منذ حين ؛ ولقد رثيت له
حين رأيته وأوشاب الناس من حوله يؤذونه بألسنتهم وأيديهم .
ولقد هممت أن أفزع لنصره والذود عنه ، وما كنت أعلم من
أمره شيئاً ، ولكنها الرحمة عطفتنى عليه ؛ ولقد هممت أن
أستأذنكما فى إيوائه وإيثاره بشىء من القرى . ولكنى رأيتكما
تنظران وتتحدثان ولا تنشطان ؛ ثم أمرتمانى بالسعى اليه ، فلما
بلغته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله فى هذه الأرض . فلما سألته
عن ذلك سألنى عن موطنى . فلما أنبأته به قال هذا موطن يونس
نبى الله . فما شككت فى أنه صاحبى الذى أقبلت ألتمس أنباءه .
قال عتبة ويحك يا عداس إن حديثك هذا لعجب ، ولكنا نخشى
أن يفسد عليك صاحبنا دينك ، وإن دينك لخير مما يدعو إليه .
قال عداس : مهلاً ياسيدى ! إن الذى يقول ما سمعت لا يدعو إلى شر
ولا يغرى بفساد ، ولا يأمر إلا بمعروف ، ولا يقول إلا حقاً .
قال شيبة : ويحك يا عداس لقد سحرك صاحبنا فيمن سحر ، فاذا

سمعت منـ[illegible] عداس : بل قال لقد هدانى فيمن هدى ، ولقد [illegible] جى ربه بحديث ماسمعت أعذب منـه . لقد حفظت [illegible] يته ، وإنك لتعلم ما أنا بالعربى ، وما حفظ أحاديثكم على بيسير .

قال عتبة : فهات أعد علينا ما سمعت . قال سمعته يقول : « اللهم إليـك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملـكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولـكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتى أغرق فى بكاء هادئ ، وأغرق سيداه فى وجوم عميق . ثم ثاب القوم جميعاً إلى أنفسهم ونظر القرشيان أحدهما الى بعض نظرة المستخذى الأسف . ثم قال عتبـة لعداس : أنت وما تشاء يا عداس من حب صاحبك وطاعته ، ولـكن لا تنسَ أن لنا عليك حقاً وطاعة ، وأنا حريصان على ألا تظهر من أمرك شيئاً فتضطرنا فيك الى ما نـكره ، وتضطر قومنا فينا الى ما نـكره

ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فاذا محمد صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها ثقيفاً ؛ وكان عداس قد انتقل من ملك ابنى ربيعة بعد موتهما الى الثقفيين ، وإذا نفسـه تنازعه الى صاحبـه ، وإذا هو يحرض الرقيق ويبث فيهم الدعوة الى الخروج على سادتهم واللحاق بجيش المحاصرين ، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون اليـه ، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون الى العسكر مسرعين وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرع منهم جماعة فيهم عداس قد مات قبـل أن يبلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم إلى النبى فيهديهم الى الاسلام ويردهم الى الحرية ، وينصرف عن حصار الطائف حتى إذا أسلمت ثقيف تكلمت فى رقيقها أولئك وأرادت ردهم الى الطاعة ، فيقول النبى الـكريم : كلا ! هؤلاء عتقاء الله

طه حسين

منطقـــة الإيمان

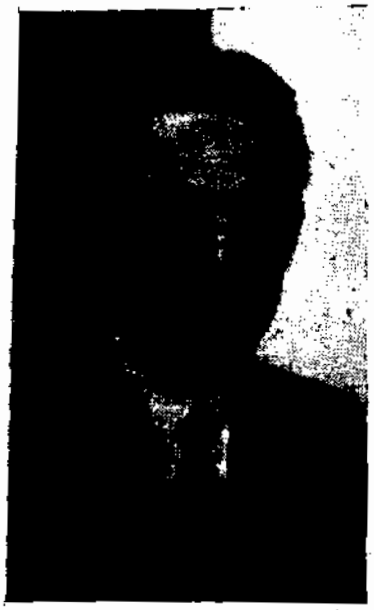

للاستاذ توفيق الحكيم

حينما كنت وكيـلاً للنائب العام كنت أرى عجباً فى قاعات المحاكم وجلسات التحقيـــق ؛ وكنت أفـكر كثيراً فى أمر ذلك الشرير الذى طالعت صحيفة حياته فاذا آثام ودماء تسيل منها ، ومع ذلك يقف أمامى متطلعاً الى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذبا . هـذا الآدمى قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شىء ، لـكن بقيت برغم هذا فى نفسه منطقة عذراء لم يتطرق اليها فساد : منطقة العقيدة ! أهناك إذن حد فاصل بين العقيـدة والغريزة ؟ كذلك كان يدهشنى أمر صديق من خيرة القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ؛ ومع ذلك بقى عقله حراً من كل قيد . ما يدور بيننا حديث فى الخالق والخليقة حتى يذهب هو فى التدليل والمنطق كل مذهب الى أن يقع فى الالحاد وإنكار الجنة والنار . وينادى المؤذن بالصلاة فاذا القاضى يسرع مخلصاً الى ذلك الدين الذى قال فيه منذ لحظة قولاً عظيما . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملـكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فان هذا القول يؤدى حتما الى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا الى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملـكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ؛ فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل . بل إن كل ملـكة من تلك الملـكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى . يقابل ذلك فى المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين